هوامش

على ساحل البحر الأبيض المتوسط، تشتهر بلدة أنفه في شمال لبنان باستخراج الملح، حتى باتت ملّاحاتها معلماً معروفاً في البلاد، أما الملاحون أنفسهم فلهم حكايات كثيرة في هذه المهنة

عمل عائلي بامتياز (نذير حلواني)

ملّاحات أنفه

لبنان: هروب من الأزمات إلى حياة مدهشة

طرابلس (شمال لبنان) ـ **أورنيلا عنتر**

يعتقد من يقف على شرفة الطابق العلوي لدير سيدة الناطور، المطلّ على ملّاحات أنفه، أنّه أمام مصانع طبيعية مفتوحة على الشمس والبحر والهواء. أجرانها مربّعة متلاصقة كمكاتب بلا كراسٍ أو أجهزة كومبيوتر، وأكياس الملح البيضاء فيها مرصوفة في صفوف متقابلة كأنها في صالة عرض، يتوسّطها دولاب هواء أزرق كبير كعلامة تجارية لها. أمّا أصحاب الملّاحات والعاملون فيها فيأتون إليها بسعادة كبيرة كأنّهم، على العكس من السائد، مقبلون على عطلة أو نزهة. وفي هذا، يقول جورج، الثلاثيني الذي ورث الملّاحة عن جدّه لأبيه، إنّه يأتي للعمل فيها هرباً من الحياة، كما لو كانت الحياة عملاً والملاحة حياة.

يتنقل حافظ جريج، وهو صاحب إحدى الملّاحات، بين الأجران وكأنه يسير على سطح المياه أو يطفو عليها بخفّة كبيرة. قدماه حافيتان ورأسه تغطّيه قبعة قش عريضة تخلق من حوله دائرة من الفيء تنتقل معه من جرن إلى آخر. يلقي التحية على أصحاب الملاحات الأخرى فيما يكنسون أرضيات أجرانها بالمكانس. يقول جريج إنّ والدته جاءت به إلى الملّاحة حينما بلغ السنتين: «لديّ شعور بأنّني ولدت في الملّاحة وأنني أرغب في أن أموت فيها». يضيف ممازحاً: «دائماً ما أطلب من أولادي أن يطمروا جسدي، حين أموت، بالملح بدلاً من التراب».

يعتبر جريج أنّ كلّ من يرث حرفة أو مهنة عن والديه أو جدّيه يعود طفلاً في كلّ مرّة يمارسها مهما ازداد عمراً. يعود بالذاكرة إلى الماضي: «كانت أمهاتنا - نحن أولاد الملاحات - يرتدين فساتين قطنية طويلة مع لفّ رؤوسهنّ بقطع من القماش. وكنا نمسك بأمهاتنا من أطراف فساتينهن خوفاً من أن يبتعدن عنّا ونبتعد عنهنّ». يتذكّر جريج كيف لم يكن أمامه خيار سوى التعلق بفستان والدته لأنّ يديها كانتا مشغولتين دوماً، تمسكان زاد الطعام في الطريق إلى الملّاحة وقساطل الملح عند العودة إلى البيت. كان العمل في الملّاحات مخصصاً للنساء والأولاد، لأنّ الموسم يبدأ وينتهي مع العطلة الصيفية: «يبدأ العمل في يونيو/ حزيران وينتهي مع أول حبات المطر في أكتوبر/ تشرين الأول أو نوفمبر/ تشرين الثاني، وكنا وأمهاتنا اللواتي لا يعملن سوى في البيت وفي تربيتنا، لا شغل لنا في الصيف سوى ملح البحر».

في الماضي، كانت النساء يحملن المياه من البحر إلى الملّاحات. وبقيت النساء على هذه الحال، تنقل كلّ منهنّ دلوها ذهاباً وإياباً، يملأنه من البحر ويفرغنه في الأجران، إلى حين جاء إلى أنفه عالم روسيّ، اسمه ألكسي دويتوفسكي، كانت قد نفته بلاده، في عشرينيات القرن الماضي، واستقبله دير الناطور. يحكي جريج قصّة هذا العالم الذي كان يمضي ساعات النهار في مشاهدة النساء ينقلن مياه البحر بأيديهنّ، إلى أن عرض على أصحاب الملّاحات حلّاً سهّل على النساء والأطفال عملهم ووفّر عليهم الوقت والجهد. يقول: «كانت فكرته بسيطة تقوم على وضع دولاب هواء متصل بمضخة عند شاطئ البحر، من شأنها أن تنقل المياه عبر الأقنية من البحر إلى الأجران كلما هبّ الهواء». ويضيف: « كان أول دولاب هواء في أنفه مصنوعاً من الخشب، وعلى الرغم من فعاليته العالية، فالخشب كان يتصدّع عند أول عاصفة». إثر ذلك، بدأ تصنيع الدواليب من المعدن بدلاً من الخشب، فوضع نحو مئتي دولاب على طول شاطئ أنفه الذي كانت الملّاحات تحتل أكثر من تسعين في المائة من مساحته. بعد نقل المياه إلى الملّاحات، يحصل التبخر الأول في أجران عمقها متر أو متر ونصف تسمّى المستودع. في هذه الأجران، تتبخر مياه البحر ويرتفع بالتالي منسوب الملح فيها. في مرحلة لاحقة، تنقل هذه المياه التي تحتوي على نسبة عالية من الملح إلى أجران يتراوح عمقها بين العشرة والعشرين سنتيمتراً، حيث تحصل عملية التبخر الثانية. في هذا السياق، يشير جريج إلى أنّ ملح أنفه ربما يكون الوحيد في العالم الذي لا يحتاج للتكرير. ففي المرحلة الثانية، إذا كان الهواء غربيّاً، يطوف على سطح الأجران ما يعرف بالملح الثقيل. ويشرح: «في هذه الحال، يقوم العاملون في الملّاحات بكنس أسطح الأجران بخفة ومهنية عالية للتخلص من الملح الثقيل الذي لا يصلح للاستخدام. بعد ذلك، يمكن استخراج ملح الطعام الذي يقوم العاملون بملئه في أكياس كبيرة قبل تصريفه، أمّا الملح المرّ الذي يرقد في أسفل الأجران، فيتم أيضاً كنسه والتخلص منه شأنه شأن الملح الثقيل». أمّا «زهرة الملح» فتطوف على سطح الأجران وكأنها تنبت على المياه. فالهواء الشرقي والشمالي الجاف يشكّل بلّورات الملح الرقيقة واللامعة كالكريستال على وجه الماء، وهي من أفضل أنواع الملح وأجودها، بحسب جريج. عندها، يقوم العمّال بجمعها وتوضيبها على الفور في أكياس من دون الحاجة إلى معالجة صناعية أو إضافات كيميائية.

يأسف جريج للضربات المتتالية التي تعرّض لها هذا القطاع، وأبرزها فتح باب استيراد الملح من الخارج من دون فرض أيّ رسوم جمركية عليه. ويعدّد: «اندثار عدد كبير من الملاحات التي كانت تزين شاطئ أنفه، بالإضافة إلى التهديد الدائم الذي يشكله احتمال إنشاء مشاريع استثمارية ضخمة على الشاطئ». فالملح اللبناني ذو الجودة العالية والملّاحات التي تعدّ معامل طبيعية صديقة للبيئة، لا تلوّث البحر، ولا تقطع التواصل مع البحر ولا تشوّه المنظر الطبيعي، ليست محميّة من قبل الدولة. وعلى الرغم من أنّ مردود إنتاج الملح لا يكفي لإعالة أسرة صغيرة أو حتى فرد واحد، يواظب هؤلاء على الحفاظ على الملّاحات وعلى حرفة صناعة الملح اللبناني. نادراً ما يحتاج أصحاب الملّاحات إلى توظيف عمّال لمساعدتهم في استخراج الملح وتوضيبه، إذ لطالما كانت هذه الحرفة شأناً عائلياً بحتاً. تقول إيفانا البالغة من العمر ست سنوات إنّها تساعد والديها في العمل. ترتدي لباس البحر تحت فستانها وتحمل منشفتها بيد وتقول: «أنا مسؤولة عن فتح الأكياس التي يملأها والدي بالملح». من جهتها، تقول جنان، التي تستثمر وزوجها إحدى الملاحات، إنّها تعمل فيها مع زوجها وابنهما وبناتهما الثلاث. وتضيف: «العمل في الملّاحة ممتع جداً، ليس بالنسبة لنا وحسب، إنّما بالنسبة لأولادنا أيضاً ممن يرثون الحرفة عنّا كما ورثناها عن أهلنا». يشير جريج، في السياق نفسه، إلى أنّ من الصعب على أولاد الملّاحات الذين أمضوا فيها كلّ مواسم الصيف من دون استثناء، أن يبتعدوا عنها، كما يصعب عليهم ألّا ينقلوا الحرفة لأولادهم من بعدهم. ويختم: «على الرغم من إمضاء عمرنا بين الملّاحات وأجرانها، فالبحر والهواء والخفّة التي طبعت طفولتنا وأيامنا التي تلت ما زالت تدهشنا حتى اليوم. أعتقد أنّ فعل الدهشة هو الذي يربطنا بهذا المكان».

باختصار

لديّ شعور بأنّني ولدت في الملّاحة وأنني أرغب في أن أموت فيها. دائماً ما أطلب من أولادي أن يطمروا جسدي، حين أموت، بالملح بدلاً من التراب.

■■■

كلّ من يرث حرفة أو مهنة عن والديه أو جدّيه يعود طفلاً في كلّ مرّة يمارسها مهما ازداد عمراً.

■■■

البحر والهواء والخفّة التي طبعت طفولتنا وأيامنا التي تلت ما زالت تدهشنا حتى اليوم. أعتقد أنّ فعل الدهشة هو الذي يربطنا بهذا المكان.

وأخيراً

في صحافة الفرد... تحية لهؤلاء

سعدية مفرح

الظاهرة الصحفية الأكثر بروزا بالنسبة لي في إطار متابعة الانتخابات الأميركية، أخيرا، هي ما يمكن تسميتها صحافة الفرد، والتي اعتبرها كثيرون، وأنا منهم، البديل الأفضل والأكثر ثقة في معرفة ما يجري في كواليس الانتخابات الأكثر إثارة في التاريخ الأميركي الحديث، فهي المرة الأولى التي يصبح فيها بعض الإعلاميين، العرب تحديدا، مصدرا رئيسا للأخبار التي يبثونها بأنفسهم في حساباتهم الشخصية على وسائل التواصل المختلفة، خصوصا منصة تويتر، من دون أن يعتمدوا على منصاتٍ رسميةٍ لهم أو سياقاتٍ تمر من خلالها أخبارهم وتحليلاتهم إلى المتابع. وإذا كانت الصحافة هي المهنة التي تُعنى بالبحث عن الأخبار وتمحيصها، والتحقق من مصداقيتها قبل تحليلها ونشرها بما يمكّن القرّاء من الحصول عليها، فإنها تخرج، في هذا التعريف، من الارتباط بنوعية معينة من المنصّات أو المنابر التقليدية التي اعتاد القارئ عليها منذ ظهور تلك المهنة. سواء أكانت الصحافة مقروءة أم مسموعة أم مرئية، فمنذ ظهور الإنترنت، وما أتاحه من إمكاناتٍ هائلة أمام الفرد في كل مكان، في سبيل صناعة البيئة المناسبة له للتعبير عن نفسه وآرائه وأخباره، ونشرها بالطريقة السريعة والمباشرة وشبه المجانية، اكتشف الصحفيون أن بمكنتهم العمل أحيانا خارج الإطار التقليدي لبيئات عملهم، بل وجد كثيرون من غير العاملين في المجال الصحفي، أو الإعلامي عموما، وجدوا أنفسهم منخرطين في هذه المهنة الجميلة، من دون أن يقصدوا ذلك، ومن دون تحضير أو تدريب مسبق يقودهم الشغف وحده. وقد مرّت علينا استحقاقات إخبارية كثيرة على صعيد العالم كله، برزت فيها صحافة الفرد بعيدا عن الاشتراطات الرقابية، بمستوياتها المختلفة، والتي تحكم المنظومة الإعلامية التقليدية. لكن السباق الانتخابي الأميركي الراهن أبرز لنا، نحن المتابعين والقرّاء العرب، للنتائج كمن يتابع مباراة شائقة تهمنا نتائجها المباشرة، مدوّنين استخدموا منصّاتهم في «تويتر» لنشر أخبار الانتخابات الأميركية، اعتمادا على مجهوداتهم الشخصية المباشرة، في متابعتها على الأرض أحيانا، ومن خلال رصدهم المحموم وسائل الإعلام الأميركية المحلية، والعابرة كل الحدود أحيانا أخرى، بعد ترجمتها وفهمها في سياقاتها في الثقافة السياسية الأميركية، وخصوصياتها التي غالبا ما تخفى على المشاهد العربي البعيد عنها. كنت أتابع تلك الانتخابات عبر حسابات شخصية، انتقيتها بعناية وحرص شديدين، وعبر سنوات من الرصد في «تويتر»، فكانت تلك الحسابات الفردية خير مصدر لي. وعلى الرغم من أنها، في البداية، كانت مصدرا إضافيا بوجود قنوات عالمية كبرى كنت أتابعها، مثل سي أن أن وبي بي سي والجزيرة، إلا أن تلك الحسابات الفردية سرعان ما اتخذت مكانة متقدّمة في الترتيب الشخصي لمصادري الإخبارية، نتيجة دقتها اللافتة، وإيجازها اللغوي البليغ، ولأنها

> مرّت استحقاقات إخبارية كثيرة على صعيد العالم، برزت فيها صحافة الفرد بعيداً عن الاشتراطات الرقابية

تعرف كيف تنتقي من الأخبار ما يهمني كما بدا لي. منها حساب المدون، زيد بنيامين، الذي تجاوز، في إخباريات السريعة، عبر «تويتر»، كثيرا من أخبار القنوات المعروفة. وما كان يبثه هو نفسه في رسائله عبر قناة العربي الجديد التي يعمل مراسلا لها. أما المدون أحمد اليهري الذي تخصص بمتابعة السياسة الأميركية بشكل دقيق، فقد أبلى بلاء مذهلا بتغطيته التي لم تترك شاردة ولا واردة. وكان في بعض الأوقات يستمر في التغطية طوال اليوم، ولم يكتف بالأخبار المهمة، بل غالبا ما كان يرافقها بملاحظاتٍ تحليليةٍ شارحة بشكل جامع ومانع. ومن الحسابات الأخرى التي لاحقت تلك الانتخابات، وتفوقت أحيانا على القنوات التقليدية، حساب الإعلامية ميساء العمودي في تغطياتها المصوّرة مع زوجها الإعلامي ياسر الغسلان، وتحليلاتهما المهمة ما وراء الكواليس. كما تميزت المدونة ريم الحرمي بشرح مميز ووافٍ لتعليقات وأخبار كثيرة ذات طبيعة خاصة بالثقافة الأميركية، وبلغة جميلة جدا. وغير هؤلاء كثيرون فعلا صنعوا من حساباتهم الشخصية منصّات منافسة، وبامتياز لافت للإعلام التقليدي الذي لم يكن في أفضل أحواله هذه المرة!

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**